الفصل الأول

التكوين

فيلبي، (الحاج عبدالله فيلبي) خبير الصحراء ومراقب بريطانيا العظمى قام بزيارة هذه المنطقة بغرض معين وهو جس نبض الشخصيات المحلية. وجاء من بعده السيد "انجرامز" وهو من كبار المسؤولين في عدن الذي استطاع أن ينتهز الفرصة السانحة في الخلافات بين السلاطين ورؤساء القبائل لكي يوسع سيطرة حكومته على هذه الإمارات.

مجلة الشرق الحديث

نوفمبر ١٩٣٧م

إن الأشياء ليست دائماً كما تبدو !!! وقد يكون من المفيد في بداية قصتي أن أشرح كيف أن رحلتي عبر أرض سبأ الحالمة قد تحققت تقريباً بسلسلة غريبة من المصادفات الرائعة. وكانت مساهمتي الشخصية الوحيدة في تلك العملية هي ما اعتدتُ عليه من عادة، نَمَتْ عندي من إقامتي لما يربو عن عشرين عاماً في الأراضي العربية، التنقل والترحال المستمر بحثاً عن مراع جديدة. فلقد كنت دائماً متأهباً لمجابهة أي طارئ بأكبر قدر من الاستعداد مثل أي عرض يقدمه رجل واحد ويمكن اعتباره بالمقاييس الحديثة مجهزاً تجهيزاً جيداً للاستكشاف. بيد أن الربع الخالي كان يبدو كما لو أنه تاج ملائم لي بإحكام، وهدفٌ لطموحاتي كمستكشف. وكنت في الحقيقة أكثر من مستعد للتقاعد بشرف والخروج من الساحة. فقد أتى عليَّ حين من الدهر -بعد هذه المغامرة بلغ مني فيه التعب مبلغاً. كما أن الجزيرة العربية- وهذه حقيقة واقعة- لم تكن قد استنفذت بكل الوسائل كميدان للاستكشاف. وحان وقت اشتراك معشر الشباب في تلك المهنة. علاوة على ذلك، وكما لم يقصر أصدقائي في

الإشارة إلى ذلك بابتسامات متعاطفة، فقد أدى ما عُرف عني من ارتباطي الوثيق بصداقة ابن سعود إلى تضييق مدى تجوالي. ولقد كانت هناك أجزاء من الجزيرة العربية لم أحلم قط برؤيتها: منها اليمن وحضرموت وغيرهما الكثير. ويبدو أن أصدقائي، مثل معزّي أيوب كانوا يعلمون عما يتحدثون. فليس هناك من داع للقلق بأي حال. هكذا كنت أرد على أصدقائي بابتسام.

وفي ١٩ ديسمبر ١٩٣٥م تم إيداعي رسمياً على رف أعمدة جريدة «بريطانيا العظمى والشرق». وكانت المناسبة مع إعادة إصدار، ربما للتعبير بلطف عن التذكير، بكتابي عن الربع الخالي، حيث قال كاتب المقال المجهول في ملاحظته ما يلي:- إننا قد نلاحظ هنا أنه على الرغم من احتمال انتهاء أيام استكشاف السيد فيلبي، إلا أنه لايوجد أي سبب يجعلنا نفترض أن عصر تأليفه للكتب قد انتهى أيضاً. ولن يكون من المدهش حقيقة أن يقوم بإصدار مزيد من الكتب في الوقت المناسب من مأواه بمكة. هذه الملاحظة كانت ستثير مثيوسلاه نفسه حتى يتخذ عملاً ما. ويبدو أن هذا الكتب يعلم ما يتحدث عنه. ومرة أخرى، وبعد حوالي أسبوعين من قراءتي لهذا الإعلان الودي، تبسمت وأنا أشارك مع زوجتي وحدنا، سراً، سوف يضع نظرية مرضي أو عجزي موضع الاختبار بالتمام. وفي الحقيقة قبل أيام قليلة من نشر هذه الكلمات في إنجلترا كنت أنا وزوجتي وكلانا على أعتاب الشيخوخة، قد وصلنا جدة في نهاية رحلة ذهاب وعودة، عظيمة، وبالتأكيد فريدة، من جدة إلى لندن، والعودة بالبر عبر ثلاث قارات. والحقيقة أننا قمنا بهذه الرحلة بالسيارة، ولكنا لم نكن أول من استخدم هذه العربات للاستكشاف. وكان الجزء العربي من الرحلة - وهو أول عبور لامرأة أوروبية لشبه الجزيرة وآخر مرحلة في رحلة العودة من دمشق عن طريق الجوف وحائل وبريدة إلى الرياض - قد وفر لنا فرص الاستكشاف الجغرافي. وكان الباقي مجرد سفر عادي، على الرغم من أن السفر على طرق الأناضول وفي ليبيا قبل أن ينفذ موسوليني الطريق السريع كان قاسياً ويحتاج إلى براعة فائقة

مثل أي تجوال بالصحراء. وبالتأكيد لم أشعر أنني عاجز (بسبب الشيخوخة) كما يبدو أن الناس يعتقدون أنني يجب أن أكون كذلك.

ولكن الشباب كانوا قد بدؤوا يظهرون على الساحة ولم يعد عبور الجزيرة العربية بالعرض يمثل موضوعاً يثيرالعجب أو يلفت الانتباه والملاحظة. وقد تعرضت المسحات المجهولة من شبه الجزيرة لمحاولات الاكتشاف من أطرافها. كما أن الطائرات -وقد نفد صبرها من خطوات الإبل البطيئة منذ العصور القديمة- وتزدري قليلاً حتى السيارات، كانت قد أنتجت بالفعل خرائط تصويرية لمناطق هائلة. بل إن النساء، اللاي بقين في مكانهن الصحيح حتى الآن طبقاً لأحكام الفروسية والشهامة العربية القديمة، قد بدأن في غزو ميدان الرجال. فقد وصل ما لا يقل عن ثلاث نساء إلى حائل مؤخراً اقتفاء لأثر الليدي آن بلانت وجيرترود بيل وزارت ثماني نساء أوروبيات الريض نفسها، التي لم ترها أي مستكشفة من النساء قط قبل العقد الحالي. والآن ظهرت نجمات جدد في الجنوب يتحدين مجد السيدة ثيودور فنت الذي ذَبُلَ. ولن أتحدث عن الأولى، السيدة إنجرامز التي خبأت بريقها حتى الآن تحت غطاء شهرة زوجها. والثانية كانت «فرايا ستارك».

وفي ١٦ ديسمبر ١٩٣٥م، أي قبل نشر الملاحظات المذكورة أعلاه في جريدة «بريطانيا العظمى والشرق» بثلاثة أيام فقط كانت «فرايا ستارك» تسحر مستمعيها في «الجمعية الجغرافية الملكية» بوصف زيارتها لحضرموت. وأشار السير بيرسي كوكس -الذي كان يترأس الاجتماع بصفته رئيساً للجمعية- إلى هذا البلد بأنه «هو المنطقة الواقعة شرق محمية عدن في جنوب الجزيرة العربية، حيث لم يصل إلى هناك حتى وقتنا الحاضر إلا رحالة قليلون نظراً لاعتراض الشعب على دخول الأجانب بلدهم». وبعد المحاضرة ذكر العقيد إم. سي. ليك السكرتير السياسي لعدن ملاحظة قال فيها: «لا أعتقد أنه من المعروف بصورة عامة أن حضرموت تشكل جزءاً لا يتجزأ من محمية عدن. وأنتم ترونها تظهر على الخريطة خارج المحمية بعيداً إلى الشرق ...».

وسوف أحتفظ بملاحظاتي على هذا الخلاف الابتدائي وأضعها بمكانها الملائم في هذ الكتاب. وما يهمني أكثر في هذه المناسبة هي الملاحظات التي أنهى بها السير بيرسي كوكس هذا الاجتماع المهم وهو يهنئ فريا ستارك على مجهودها الشجاع - على الرغم من أنه ليس ناجحاً - للوصول إلى شبوة. وقال : «بالنسبة لي تعد رحلة من «المكلا» على طول المنطقة الداخلية، وعبر الحدود الغربية للجزيرة العربية الكبرى حتى الطائف رحلة رائعة من الرحلات، في ذلك الجزء الوحيد من شبه الجزيرة العربية الذي لم يُكتشف بالكامل». وكان السير بيرسي كوكس يدرك بالتأكيد عما يتحدث. كما أنه كان يعرف تمام المعرفة، قبل أن يتوفى وهو فوق السرج بعد ذلك بأربعة عشر شهراً فقط، أن الرحلة نفسها التي كان يتصورها في تلك الكلمات قد تم إنجازها كما يجب. ولكن أيام رئيسي القديم خلال الحرب في ما بين النهرين لم تطل ليسمع التفاصيل الكاملة لتلك المغامرة، وقد كان سعيداً لعلمه أنه تم إنجازها بشخص اختاره هو بنفسه لأداء خدمة خاصة في الجزيرة العربية قبل عشرين عاماً [1].

وملاحظاته التي قيلت في هذه المناسبة، ولم أعلم بها حتى مارس التالي، لم يكن لها أي ارتباط أو تأثير بأي حال على خططي. وفي الحقيقة قبل أن تقال تلك الملاحظات كنت أنا وزوجتي قد وصلنا إلى الرياض في ١٠ ديسمبر أثناء رحلة عودتنا من إنجلترا التي ذكرتها سابقاً. وفي اليوم التالي لوصولنا استدعاني الملك عبدالعزيز لمقابلة خاصة، وسألني: «هل تود الذهاب إلى نجران؟» فأجبت: «في الحقيقة نعم» فواصل كلامه قائلاً : «حسناً، سوف تذهب وهناك الحدود الجديدة التي سيتم ترسيمها بالخرائط. سوف تذهب عندما يكون الوقت ملائماً. سأكون أنا في مكة للحج.

---

(١) يشير فيلبي هنا إلى أول مهمة قام بها إلى داخل الجزيرة العربية في عامي ١٣٣٦هـ - ١٣٣٧هـ التي نشر تفصيلاتها في التقرير الذي كتبه عن الرحلة وقام الدكتور عبدالله العثيمين بترجمته ونشر وبعنوان: بعثة إلى نجد. لمزيد من التفصيلات عن الرحلة انظر:

عبدالله الصالح العثيمين، بعثة إلى نجد، الرياض ١٤١٨هـ. (المراجعون).

وعندما أنتهي من عملي هناك سوف تأتي معي إلى عشيرة. ومن هناك ستبدأ رحلتك. جهز نفسك للرحلة. متى تذهب لجدة؟». فقلت: «غداً». وشكرت له عطفه الكريم وترك المكان وخرج. وبعد ذلك جاء الحجاج وذهبوا، وانهمك الملك في الشؤون المترتبة على ذلك. وكنت أراه كل يوم، أتناول معه الغداء والعشاء كالعادة يومياً، وأحضر جلساته في الصباح وبعد الظهر والمساء. ومضى مارس حتى إبريل، وأوشك أبريل على الانتهاء. ولم ينبس كلانا ببنت شفة عن الاتفاق الذي عقدناه بالرياض. وسارت الاستعدادات لرحيل الملك على قدم وساق. وفي اليوم السابق لرحيله للإقامة لمدة شهر في مخيم بعشيرة استدعاني إلى جواره وسألني: «هل نسيت؟» فقلت: «لا» فقال: «هل أنت مستعد؟» فأجبت: «نعم» فأردف: «سوف نركب لعشيرة غداً إن شاء الله». ونبقى هناك، لمدة شهر، مع زيارة متقطعة لمكة وجدة». مكثت في المدينة المكونة من الخيام العظيمة بين سكانها البالغ عددهم ٤٠٠٠ شخص. وكانت هذه الأيام مثيرة مفعمة بالحياة والنشاط أيضاً والعالم يمر بمخاض ميلاد إمبراطورية جديدة. وكان المذياع (الراديو) يفيدنا بالأخبار أولاً بأول. وجاءنا سقوط أديس أبابا وبالتالي ضم أثيوبيا للإمبراطورية الرومانية كقصف الرعد في عاصفة تستجمع قواها. وساد شعور بقوة القضاء والقدر على مخيم الملك، ولكن الشؤون اليومية سارت كالمعتاد. وبعثتي لم تغب عن الأذهان. ففي أحد الأيام سألني الملك عن البرنامج التقريبي لرحلتي المقترحة. فقلت: إنه يكفيني فترة خمسة شهور، منها نزهة في الربع الخالي بحثاً عن حيوان البقر الوحشي (Oryx)، على أن يبدأ سير الرحلة على مهل من الطائف عبر المرتفعات إلى أبها. وبناءً على اقتراح الملك تمّ تأجيل هذا البند لوقت آخر لصالح إنجاز تقدم سيري بالسيارة نحو أبها. وقال الملك: «لن تضيع وقتاً في الوصول إلى نجران. فهناك بعثة من الرجال المتعلمين من مصر موجودة الآن باليمن. وطلبوا تصريحاً للدخول لبلدنا عبر نجران وقد منحتهم إياه. وسوف يكونون أول من يصل هنا إذا تلكأت في الطريق». وحيث إن الحدود سيتم ترسيمها في خرائط عبر

التلال الوعرة بعسير وتهامة فقد تم تخصيص معظم الوقت المتوفر بطريقة غير مؤكدة لنجران. وبعد ذلك أحال صاحب الجلالة البرنامج -بعد التعديل- إلى بعض وزرائه لإبداء ملاحظاتهم. ومسألة احتمال رفع دعوى مطالبة من قبل التابعين لي ضد الحكومة في حالة وفاتي أثناء البعثة تم التغلب بسهولة عليها من خلال توقيع خطاب رسمي بالتعويض. وقوبل الهدف العام لرحلتي، الصيد، والاستكشاف، ورسم خريطة الحدود، بالرضا والقبول من الجميع. ومع ذلك - على كل حال - ثار اعتراض -مبني على حق تماماً- على الأمور المالية. وبدون استشارتي قرر الملك أن يتم تمويل بعثتي من قبل الحكومة، التي طلبت بصورة معقولة تماماً، ما دامت قد وافقت على التمويل من حيث المبدأ. تقديراً للمبلغ المطلوب على الأرجح. وذات صباح أرسل الملك في طلبي لمناقشة هذه الأمور، وسألني: «كم ستحتاج من النقود؟» فأجبت: «لا شيء، فعندي كل ما أحتاج إليه، ولا أريد لرحلتي أن تورط الحكومة في أي تكلفة مالية. فلو كنت ذاهباً إلى أوروبا لكان لزاماً عليّ أن أنفق مبلغاً معيناً من المال. هذا المبلغ سوف يكفي للوفاء بنفقاتي في هذه الرحلة».

وكان عندي من الأسباب الشخصية الجادة ما يجلعني أرفض أن أورط الحكومة في أي مسؤولية محددة عن بعثتي. إن تمويلها قد ينطوي ضمنياً على مثل هذه المسؤولية، وكان وزير المالية على الأقل مسروراً بعدم اضطراره لتوفير أموال لأبذرها. كما كانت وزارة الخارجية البريطانية لديها من الأسباب الكافية في حينه لتبارك بُعد نظري. ولتلطيف الأجواء وتسهيل الأمور ترك الملك هذا الأمر ينتهي حيث استقر الرأي. وقدم وزير المالية عرضاً بصورة سخية حيث قبلت عربة (لوري) لتحمل الإمدادات الضرورية من المواد البترولية التي لن نجدها بالطريق إلى أن نصل نجران. وكان المخيم قد تم إقامته يوم ١٩ مايو، وبدأ الجزء الأعظم من الموكب رحلته متجهاً نحو الرياض مباشرة، بينما مضى الملك مع جماعة صغيرة فقط إلى الآبار المحدثة القريبة ليمكث هناك ليلتين.

ومن هناك بدأت مغامرتي في صباح ٢١ مايو[1]. وعندما ذهبت للاستئذان من الملك وجدته يُملي خطابات لأحد سكرتاريته الخاصة. وكانت موجهة إلى عدد من الحكام والمسؤولين المحليين الذين تقع مدنهم في طريق رحلتي، وكانت تحتوي على أوامر موجزة ومهذبة لعمل كل ما يقدرون عليه لتعزيز رغبتي وسروري. وسألني الملك: «أهذا كل ماتريده؟» فأجبته: «نعم هذا كل ما هناك» وأضاف قائلاً: «إذن على بركة الله !!» وهذه عبارة معتادة للإذن ببدء رحلة ما من الرحلات ثم واصل قائلاً: «ولكن قف !! هل عندك أي نقود؟» فأجبت: «كثيراً» فنظر لي نظرة فيها شيء من الشك وألح في السؤال: «كم من النقود معك؟» فأجبت: «مائتا جنيه من الذهب ومئت قليلة من الريالات». فقال: «هذا شيء طيب» ثم التفت إلى سكرتيره وأردف: «إنه معتاد على بدء الرحيل وليس معه شيء، وينسى أنه، حتى إذا استطاع أن يعيش بالكفاف أن رفاقه لا يستطيعون ولن يفعلوا». ولقد شعر بالتأكيد بكل راحة عندما تيقن أنني قد ادخرت بعض المؤونة للطريق. وإذا كنت خالي الوفاض لكان قد أصرّ عليّ أن آخذها من مخصصاته الشخصية. وكان عندي بالطبع تصريح للحصول على مبلغ من المال من حين لآخر من خزانة الحكومة في طريقي مقابل فواتير تُرسل إلى جدة. وعلى أي حال فقد كانت موافقة الملك على دعمي مادياً بمثابة ملاك يحرسني طول مغامرة لا يمكن التنبؤ بمجراها. وبدونها لم أكن أستطيع بدء رحلتي أبداً أو أنني لن أرجع منها أبداً.

وعندما ذكر صاحب الجلالة هذا المشروع لأول مرة بالرياض في ديسمبر برز في ذهني عاملان اثنان فوراً وبصورة تلقائية كأساس لمشروعي. ويطيب لي أن أقول: إنني حتى هذه اللحظة لم أفكر أبداً أن تكون هذه الرحلة في حدود الممكن - ناهيك عن احتمال تنفيذها. ولكن ذكر الملك لنجران جعل عقلي يتخيل صورة أراض قصيّة

(١) ٢٠ مايو ١٩٣٦م الموافق ١ ربيع الأول ١٣٥٥هـ. (المراجعون).

ونائيـة. لماذا لا يجـوز أن يكون هناك أي نهـاية لمثل هذه الرحـلات والجـولات إلى «أقصى الشـمال» نفسـه؟ وكنت أعلم طبعـاً من قبل أن فريـا ستارك قـد فشلت في الوصول إلى شبوة، وأعلنت أنها في كامل عزلـتها وقوتها. وأنا نفسي كنت قد أتيت للرياض من عرض البـحر المتوسط. وكنت بالـفعل على مقـربة من المحيط الهنـدي، وتقع شبوة في مكان مـا على طريقي. وعلى نطاق متضاعف في خيالـي أبعاد اقتراح الملك، ولكني لزمت جانب الحذر حتى تظل مثل هذه التـخيلات لنفسي فقط، فـربما ثبت أنه لا يمكن تنفيـذها بالكامل، وإذا أخفقت في الوصول لشـبوة يمكنني دائماً أن أتظاهر بأنني لم أنوِ ذلك أبداً. وعلى أية حال أصبحت شبوة النجم الهادي الذي أرنو إليه سراً منذ تلك اللحظة. ومن هناك كانت حضرموت - بمدنها التي تناطح السحاب - لا تبعـد إلا مرمى حجر. ووراءها بمسـافة غير بـعيدة كان هناك البـحر يومئ إليّ ويدعوني بإغراء - ولم يُعرف حتى الآن أن كائناً بشـرياً قد سار براً من البحر المتوسط حتى المحيط الهندي، وهكذا سأكون أول من يفعل ذلك.

وفي نطاق هذه الحـدود القصيّـة التي نشأت في أحـلامي كان هناك مـا يكفي لإنجازه في الوعي. إن نجـران نفسهـا قد زارها ذات مرة رجـل أوروبي، وهو فرسي يدعى جوزيف هاليفي[1] منذ ما يقرب من سبعين عـاماً. كما أن الحدود الجديدة بين اليمن والمملكة العربية السعودية التي تم مؤخراً فـقط الاتفاق عليها وترسيمها من قبل لجنة مشـتركة لم توضع على الخـريطة. كما أن الجبـال الشاهقة التي تحـيط بنجران، وكذلك الهـضاب المثيرة لعـسير كانت أرضـاً مجهولة. ووراء نجـران يمد الربع الخالي غطاءه الرملي حتى عتبة اليمن نفسها. ولم تعبر سيارة حتى الآن تلك الرمال الرهيبة، وفي مكان ما على طول حافتـها سوف أتتبع الحدود الطبيـعية، وأقرب من ذلك على

(١) جوزيف هاليفي. أستـاذ الدراسات العليا بالسوربون، له رحلات في جنوبي البلاد الـعربية، وزار اليمن سنة ١٨٦٩م في زي يهود اليمن، وزار نجران أيضاً وجمع أثناء رحلته ٦٨٦ نقشـاً من كتابات قديمة، نشر ترجمتها وعلق عليها في المجلة الآسـيوية. توفي سنة ١٩١٧م. عقيقي، المستشرقون ج١، ص١٩٩. بدول، رحالة الغربيون، ص١٥٦. (المراجعون).

الجانب الثاني من نجران يقع وادي حبونا[1]، وهو أرض غامضة لم ترها عيون أوروبية قط. وأقرب من هذا وذاك تقع أودية تثليث المجهولة، وخميس مشيط في وادي بيشة، وأبها المدينة المشهورة في شمال عسير التي لم يزرها أي أوروبي على الرغم من أنها معروفة بصورة كافية للأتراك. كل هذا إقليم بكْر سوف أراه في جولاتي القادمة - وسوف أملأ عينَيَّ بكل شبر منه. وكان مجال الرحلة هائلاً في إمكانياته. واحتمالات إنجازاتي لا يمكن أن تقاس إلا بأبعاد حالمة. ومع ذلك، وفي الحقيقة الماثلة للعيان وأنا في حالة الوعي فإن نتائج رحلتي الممتدة لتسعة شهور مقابل الخمسة التي كانت مقترحة لبرنامجي - قد تجاوزت تقديري الأول المتفائل بقدر عظيم.

وكان هناك إمكانية واحدة فشلت تماماً في وضع احتمال لها، وهو احتمال لم يظهر أبداً في حدود مجال رؤيتي، ألا وهو «علامات الشرف والرفعة لمدينة ضبابية في الفضاء والنور». فلم يدر بخلدي أبداً أنه، بالإضافة إلى شبوة ستكون أرض سبأ أو أرض أُز ضمن نطاق تجولي. وقد وضعت الظروف كليهما في متناول يديّ، ليتوجا معاً قمة موضوع هذا الكتاب، ويقدما لي عنوانه. فسوف أرى في الحقيقة بنات سبأ، وأمهم مدينة مأرب نفسها، التي لم تعد جميلة كما كانت في الأيام الخالية، إذ أصابتها التجاعيد بفعل الزمن والإهمال، مهجورة بين الفيافي والقفار، أشلاء ممزقة لاسم كان عظيماً ذات يوم، وتتأمل بوهن وضعف في الكنوز الدفينة من تاريخها التليد. ولكن من خلال كنوزها وبؤسها الحاضر استطعت أن أستشف الروح الرائعة لمجدها العتيق. وسوف أرى البقعة نفسها التي تجلس عليها «الملكة» العظيمة التي ما زالت تذكرها الرويات في ثلاثة أديان سماوية عظيمة على الرغم من أن التاريخ قد نسيها أو لم يكتشفها بعد، بكل حُليّها وزخارفها ذات الروعة الإمبراطورية الفاتنة، وجماعة

(١) حبونا: واد يعد أكبر واد في المنطقة بعد وادي نجران، واسمه القديم حبونن، وينطق الآن حبونا والبعض يسميه حبونه (بالهاء)، وهو خطأ، وحبونا الآن محافظة تابعة لمنطقة نجران. أشار البلادي إلى بعض قرى حبونا وروافد واديه. البلادي، بين مكة وحضرموت، ص ص١٩٩-٢٠٦. (المراجعون).

الفيلة، وسرايا حملة الرماح، ومظلة الهدهد الذهبية والسوداء لتظلّها من وهج شمس الصحراء أثناء رحلتها الرومانسية للملك سليمان. وسوف أسير أيضاً في طريقها: طريق الفيل، ممتطياً مركبة حديدية لم يُر مثلها في أرض سبأ حتى وقتي هذا.

إن رحلتها، قد تكون في الحقيقة منافسة لرحلتي أنا كأول رحلة محفوظة أو مدونة لعبور الجزيرة العربية بالطول. والشخص الثالث الآخر الذي يحتمل أنه قد فعل الشيء نفسه هو إيليوس جاللوس الذي أرسلته الإمبراطورية الرومانية بعد عهد هذه الملكة بألف عام لضم أراضي البخور للإمبراطورية. ولكن جاللوس - الذي كان مصراً على تدمير الاكتفاء الذاتي الاقتصادي لبلاد العرب السعيدة، لم يصل إلى أبعد من، حسبما يخبرنا بليني، كاربتا (وربما تكون خربات أو خربة أبي السعود)، وفقد معظم جيشه في رمال الصحراء الكبرى أثناء رحلة عودته المشؤومة[1]. ومن ناحية أخرى، يعتقد أن بلقيس كانت على دراية كافية بالبحر الجنوبي، ويبدو أنها قابلت سليمان في تدمر. ومن اللطف في الحكم على الناس أن نفترض على الأقل أنها، مادامت قد وصلت إلى هذه النقطة البعيدة، لم تولِّ ظهرها عائدة دون أن تلقي نظرة على البحر الداخلي، وربما قامت بزيارة ابن عمها، حِرام (Hiram) ملك صور. وهكذا تظل بلقيس منافستي الوحيدة[2]. والنظرة التي اختلستها على بيتها قد أثارت فيَّ شعوراً ودياً

(١) كانت حملة إيليوس جاللوس، سنة ٢٤ ق.م، واعتمد في دخوله الجزيرة العربية على حلفائه النبط وصلت هذه القوة إلى نجران واستولت عليها ثم تقدمت جنوبًا إلى مأرب. ولم يجد مقاومة في طريقه ثم حاصر مأرب ولم تسقط في يده لحصانتها، مما دفعه إلى العودة على أعقابه، وقد كانت حملة فاشلة لم تحقق هدفها في احتلال بلاد العرب السعيدة مصدر التجارة والثراء في العالم القديم. انظر بافقيه: تاريخ اليمن القديم ص٧٤-٧٧. (المراجعون).

(٢) من خلال هذا الكتاب سنلاحظ أن المؤلف يخوض في بعض الأحيان بالحديث عن سليمان -عليه السلام- وعن بلقيس. ولسنا بحاجة للتنبيه إلى أن فيما يذكره الكثير من المغالطات التاريخية أو الدينية لاعتماده في ذلك على الأساطير أو الروايات الإسرائيلية. وما نعتقده ونعتمد عليه مصدراً موثوقاً في هذا الجانب هو ما ذكر في القرآن الكريم والسنة النبوية من قصص الأنبياء وأتباعهم. (المراجعون).

تجاه شخصيتها، واهتماماً غريباً بحياتها الخاصة. وتقدمها التقاليد لنا، طبقاً لانحيازها المحي، على أنها الجدة الأعلى لاثنتين من الأسر الحاكمة، واحدة قد انقرضت منذ زمن طويل، والأخرى قضى عليها الغزو الأجنبي. والقصة العربية تفند مزاعم الأثيوبي. وهذا الأخير يكذب الشرير وينكر همس الفضيحة الذي أعطاه مادتها. وحفظت أوروبا في العصور الوسطى أو اخترعت رواية مغايرة للقصة والتي تميل إلى تفنيد قصة بأخرى، وتطعن في زعم الأثيوبي بالانتماء إلى أصل سبئي. ويتقابل الشرق والغرب في قياس حكمة سليمان المشهورة أو ينكر احتمال وجود علاقة بينه وبين قوم سبأ. ولا يقدم الشرق إلا دليلاً مروياً لروايته التي جاءتنا عبر مئات الأجيال من المستمعين "للإذاعة العربية" وهم الرواة، أما الحكاية الغربية فقد كانت مكتوبة في الحجارة، وبقيت حتى يومنا هذا تتحدى أي ترجمة دقيقة لها.

إن هذا اللغز يمكن أن يكون ممتعاً إلى حد كبير لمؤلفينا الذين يشتغلون بقصص الخيال البوليسية، ناهيك عن قادة الشرطة الأكفاء في إسكوتلنديارد الذين يضحك الناس عليهم أحياناً. ويعود الفضل لأثينا نفسها، التي كنت أستغيث بها أثناء حيرتي بمجرد أن وطأت قدمي عتبة سبأ، بمعرفتي بالإجابة. فمثل كلب بوليسي سري، أو ربما بالأحرى مثل كلب سلوقي جميل من صحرائي، كانت أثينا تلاحق هذه الأحجية عبر الوثائق الترابية في جبال الأوليمب. وهناك وجدت مفتاح اللغز -مفتاح سر سبأ- مختفياً بعيداً في سجل أحد المباني غير معروف ولم يعد له وجود للأسف. ولا يمكنني أن أفعل شيئاً أفضل من إيراد القصة كما هي بألفاظ مؤلفها - إميل مال حيث يقول:

"ولكن على بوابة سانت - بنين في ديجون . . . التي لم تعد موجودة اليوم - إلا أن دوم بالنشير احتفظ لنا بالصورة التي كانت عليها . . . يكتمل الزخرف (أي زخرف البوابة) بوجود ثلاثة تماثيل لملوك توراتيين وتمثال لملكة. وهذه الملكة

الغامضة ستكشف لنا هذه المرة عن سرها. بدراسة الرسم الخاص بهذه الملكة يلاحظ المرء أمراً كان من الصعب أن يصدقه لولا أن الشواهد القديمة كانت تؤكده: فالملكة المرسومة على بوابة سانت - بنين كان لها قدمي أوزة. هكذا صوَّر فنان ديجون هذه الملكة الشهيرة التي لم تكن سوى ملكة سبأ.

لفترة طويلة من الزمن نسج الخيال اليهودي كثيراً من القصص حول ملكة سبأ. في الشرق نُسجت حولها قصص أسطورية خيالية.

بكل هذه الملاحظات الطريفة أترك سر ملكة سبأ للآخرين يتصارعون فيه. وبينما كنت أتجهز لبدء الرحلة فقط أعطيت وصفاً لكيفية تكوين رحلتي مع فصل إضافي عن نتائج ما جاءني من إلهامات أثناءها - البداية والنهاية لمسيرتي مع سبأ ولذلك لم يبق إلا أن أنغمس في صميم الموضوع مع تصوير موجز لبيانات خروجي الذي، كما سيرى القارئ في الفصل القادم، يبدأ على نحو مفاجئ وغير متوقع، بقدر ما يتصل الأمر بهذا الكتاب - في نجران، بعد أكثر من ثلاثة شهور من افتراقي عن الملك في آبار (المحدثة) وربما كان هناك كتاب آخر يصور يوماً ما الطريق على حدود اليمن عبر المرتفعات العالية إلى البحر الأحمر بالقرب من ميدي ومن هناك عبر طريق الساحل مروراً بتهامة التي كانت مزدهرة يوماً ما إلى مكة المكرمة. وفي عام ١٩٣٢م عندما جئت من الربع الخالي حتى وادي الدواسر وبيشة عدت إلى مكة بطريق الفيل الذي ذكرته من قبل ولذلك -في هذه المناسبة- آثرت أن أسير في طريق السيارات العادي. ومشيت في دائرة واسعة، بدأت أولاً بالاتجاه للشرق خلال راحة الخرمة، ثم صوب الجنوب بطريق وادي رنية إلى بيشة حيث أخذت طريق الفيل من هناك مرة أخرى. وحتى بيشة، لم تكن المنطقة التي مررت بها معروفة لأي فرد من البشر غيري. فقد غطت رحلاتي عام ١٩١٧م و١٩٣٢م و ١٩٣٤م معظم هذه

الأرض ونتج عنها رسم خرائط لهـا. وكانت بيشة ورنية بالإضافـة إلى زيارتي لهما، قد ـارهمـا رجل ألماني في عام ١٩٣٠م يُدعى ليـوبولد فايس[١] والذي لم يكن على أي حال مجهزاً بطريقة مناسبة للعمل الجغرافي الجاد، ولم ينشر في حدود علمي أكثر من بعض الرسومات الصحفية البسيطة لرحلته في هذه الأصقاع. وأجد لزاماً عليّ أن أذكر أيضاً أن السيد لاركن وربما آخرين غيره من «شركة التعدين العربية السعودية» قد تفحصوا المرتفعـات في جنوب الطائف حتى صفير وجحيفة شـمال - غرب بيشة في عام ١٩٣٦م بحثاً عن الذهب. وعلى أي حـال لم ينشر وصف أو تُرسم خريطة لهذا الجزء الشيّق من الاستكشاف.

وفيما وراء بيشـة، عبر خيبر الجنوب وخميس مشيط إلى أبهـا ومرتفعاتها التي تكسوها الغابات، ومن هناك بطريق أودية تثليث حتى حبونا ونجران كانت تلك المنطقة لم تستكشف بالكامل بعـد وإن وجـدت لها خـرائط على الإطلاق، فـهي من نسج الخيـال الذي يعتـمد على دليـل سماعي من الـدرجة الثالـثة. ومن المدهش حـقا أن الأتراك، الذين لهم باع طويل في الاحتلال العسكري والإداري لأبها، لم يفكروا أبداً أنه من المجدي أن يعدوا خـريطة معقولة لمنطقة عسـير. والمشكلة هي أن الخرائط ليس لها قيمة نقديـة إلا في زمن الحرب. والخرائط الحبشية - مهما كانـت سيئة - كان لها رواج طيب في عـامي ١٩٣٥ - ١٩٣٦م عندما كانـت أجهزة المذياع والصـحف تعج بالزيـات الأثيوبية. أما الخرائط العربية فما زالت تشكل الاهتمام عند الخبراء الواعين،

(١) ليوبولد فـايس (١٩٠٠-١٩٩٢م) مستـشرق نمساوي وليس المانـياً أسلم وتسمى بمحـمد أسد كـتب عدداً من الـدراسات معظمها في تـصحيح أخطاء المستشرقين عن الإسلام، وترجم صحيح الـبخاري، وله كتاب الطريق إلى مكة وكـتاب الإسلام على مـفتـرق طرق وغيرهـما. انظر: العقـيقي، المسـتشـرقون، جـ٢، ص٢٩١، (المراجعون).

على الرغم من أنه كانت ستواتيهم فرص سانحة لإظهار براعتهم في عام ١٩٣٤- لو كان هناك مسرح لعمليات الحرب على الحدود اليمنية. ياله من قائل شرير: أدعو الله أن تظل الجزيرة العربية دائماً وأبداً خالية من المشاعر التي تبدو أنها وحدها تحمز الناس في أحاسيسهم. إن الذين يستطيعون أن يصمدوا لوجبات مشبعة من الطبوغرافيا الجافة خالية من البهارات سوف يجدون الكثير من طبخي هنا. في نوعيته وكميته يكمن ادعائي الرئيس بالشهرة، وإذا كنت قد غفلت هنا وهناك أثناء تأدية واجبي فإنني أستطيع بالتأكيد أن أطالب النقاد بأن يغفروا لي ذلك لأنني، طول الوقت الذي قضيته كله بالجزيرة العربية -كنت أعمل بمفردي، وأشعل السراج حتى منتصف الليل «لأترك ملذات الحياة وأعيش أيام الجد والكفاح».

وقد كانت بعض هذه الأيام مليئة فعلاً بالعمل الجاد والشاق، ولكن هذا العمل الشاق كان لذيذاً وممتعاً بدرجة كافية، لاسيما في تلك الأماكن مثل نجران حيث كنت أمشي على خُطى هاليفي تماماً. مثل امرأة في عنفوان شبابها، هادئة ووادعة في تذكرها للمشاكل الماضية، ولكنها تواجه بسرور ما تبشر به أيام السلم من وعود تحت رعاية الحاكم الجديد[1]. ويمتد شريط عريض من الرمل الأبيض مثل الثلج، كخيط حيك به ثوب متباين الألوان فهناك الأخضر الفاتح لمروج الحلفا يلقي ظلاله على لون الدخن الفاتح والداكن في آن واحد. كما أن هناك اللون الأخضر الداكن لأشجار النخيل التي تخفي البيوت الريفية الشبيهة بالقلاع - وعلى كلا الجانبين تنض الأهداب العظيمة للجُرُف السوداء التي يكسو قمتها شريط وعر من الصخور الرملية ذات اللون الخمري. ولم أر شيئاً أجمل منها في جميع أنحاء الجزيرة العربية. ولن

(١) يقصد هنا - حكم الملك عبدالعزيز -رحمه الله-. (المراجعون).

أنسى أبداً مشهد ذلك الوادي الساحر وهو يتدثر بضباب الصباح أو عندما يضيء بنور خاص، في حرّ ظهيرة الصحراء أو عندما تتوهج الجبال الغرابيب السود حتى تصير بيضاء براقة في الشمس الدانية، أو تحمر خجلاً مرة أخرى بنعومة ورفق في أشعة الغروب المائلة، إلى أن تمسي ذات لون أبيض وأسود تحت ستار الليل. ويوماً بعد يوم ولمدة شهر الآن، وشهر آخر أثناء عودتي من أرض سبأ كنت أكحل عيني بهذا الوادي العظيم الذي ينساب عبر الجبال حتى بحر الرمال، ذلك الذي يدعى «الربع الخالي». ويوماً بعد يوم كنت أتطلع عبر النهر إلى تاج المجد التليد، إلى المباني الأثرية المتهدمة لنجران.

وفي قلبي تقف نجران، عظيمة في حجمها وأهميتها. ولكن أسباب اعتقادي ذلك يجب أن تبقى حبيسة لأبوح بها في كتاب آخر. وربما يقوم المجراف ذات يوم بكشف جميع أسرار سبأ، حتى نتمكن من تقدير القيمة النسبية لمناطقها المختلفة ومكانها في تاريخ إمبراطورية طواها النسيان. وحتى ذلك الوقت نستطيع فقط أن نقترح بعض الرسومات الابتدائية لتملأ الفراغات الضخمة في الخارطة التاريخية. وعندما حان وقت ركوبي للخروج من نجران بعد هذه الأسابيع الأولى التي قضيتها تحت سقف الجود والكرم لإبراهيم النشمي أميرها [1]- كنت قد ملأت أوراقي فعلاً بالكثير من المواد التي يمكن فهمها واستيعابها على مهل.

---

(١) هو إبراهيم بن عبدالرحمن بن إبراهيم النشمي من رجالات الملك عبدالعزيز المعروفين. ولد في شقراء عام ١٣١٣هـ واشتغل بالتجارة خاصة تجارة السلاح وعن طريقها تعرف على الملك عبدالعزيز، . تولى عدداً من المهام منها إمارة ينبع البحر، ونجران والخرج واستمر على مكانته حتى توفي -رحمه الله- عام ١٣٩٨هـ.
لمزيد انظر: مجلة الدرعية، العدد الأول والثاني المحرم، ربيع ١٤١٩هـ، مقالة عن إبراهيم النشمي بقلم الدكتور عبداللطيف بن محمد الحميد. (المراجعون).